﴿قَالُواْ بَشَّرۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ ٥٥﴾ [الحجر: 55]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا ظهرت على إبراهيمَ عليه السلام علاماتُ التّعجُّبِ المُفضي إلى احتمالِ الشَّكِّ في صحَّة الخبرِ أجابوه مؤكِّدين لِما بشّروه به تحقيقًا وصدقًا، كما أنَّ كلامَه اقتضى ردًّا لِما دلَّ عليه تعجُّبُه واستبْعادُه أن يكونَ له ولدٌ فجاءت هذه الآيةُ، لبيانِ أنَّ أمرَ اللّهِ لا يُتعجَّبُ منه[1].

تَعجُّبُ إبراهيمَ عليه السلام، وتأكيدُ الملائكة، أنْ لا عَجبَ من أمْرِ اللهِ

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡقَٰنِطِينَ﴾: أصلُ القَنْطِ: المَنْعُ، يُقال: قَنَط ماءَهُ عنّا، أيْ: مَنَعَهُ، ومنه سُمِّيَ اليَأْسُ قُنوطاً؛ لأنَّ اليائِسَ مَنَعَ نَفْسَهُ من رَحْمَةِ اللّهِ تعالى. ويأتي القنوطُ بمعنى قَطْعِ الأمَلِ، والقُنوطُ: اليَأسُ مِنَ الشَّيْءِ، يُقال: قَنِطَ مِنَ الخَيْرِ، يَقْنَطُ، ويَقْنِطُ، فهو قانِطٌ، أي: يَئِسَ، وضِدُّه: الرَّجاءُ والطَّمَعُ[2]. والمرادُ بالقُنوط في الآيةِ: اليَأسُ الشَّديدُ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

قالتِ الملائكةُ لإبراهيمَ: بشَّرْناك بولَدٍ قد قضى اللّهُ أنّه كائنٌ بلا شَكٍّ، لأنَّ اللّه على كلِّ شيءٍ قديرٌ، وأنتم بالخصوصِ - يا أهلَ هذا البيتِ - رحمةُ اللّهِ وبركاتُه عليكم، فلا تكُنْ - يا إبراهيمُ - مِنَ اليائسينَ مِن فَضلِ اللّهِ، الذين يَستبْعِدونَ وُجودَ الخيرِ، ولكِنْ أبشِرْ بالولَدِ مع الكِبَر، واقبَلِ البُشرى بذلك[3].

الحقُّ هو الأمرُ الثّابتُ، ولا عجَبَ، فالله لا يُبشِّرُ إلّا بالحقِّ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/541، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/59.
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (قنط)، والمناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 257.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/84، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/35، 36، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 432.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الاسْتئنافِ البيانِّي في الآيةِ:

من بيانِ السّياقِ تكثيرُ المعنى، بتقليلِ اللّفْظِ

جاءتِ الآيةُ على الفصل؛ لأنَّ جملةَ ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾، اقتضت سؤالًا، ودلَّت عليه بالفحوى، فنُزِّلت منزلةَ السّؤال الواقعِ لإغناء السّائلِ عن السّؤال، ولتكثيرِ المعنى بتقليل اللَّفظِ، أي بتركِ السُّؤال والعاطفِ، ففُصلت هذه الآيةُ عمّا قبلَها كما يفصلُ الجوابُ عنِ السّؤال، ليكونَ الكلامُ على طريقِ الاستئنافِ البيانيِّ، فكأنَّ السّامعَ قال: فماذا قالتِ الملائكة بعدَ أن استبعدَ إبراهيمُ استبعادَ المتعجِّبِ أن يكون له غلامٌ عليمٌ، فجاءت هذه الآيةُ على طريق الجوابِ للسُّؤال المقدَّرِ.

سِرُّ تَكرارِ الفعلِ ﴿بَشَّرۡنَٰكَ﴾:

مــن بَــلاغــةِ الـسّـيـاقِ، أنّ تَـكـرارَ الفعل، لتأسيسِ المعنى لا لِتأكيدِه

لمّا جاء الفعلُ بصورة المكرَّرِ أفادَ تأكيدَ البِشارة المذكورةِ وتحقُّقَ وقوعِها، ولمّا قالوا ﴿بَشَّرۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ كانت هذه البشارةُ على معنًى غيرِ المعنى الذي أفادته جملةُ ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾؛ لأنَّ الأولى تفيدُ تبشيرَ إبراهيمَ عليه السلام بالغلام العليم وهذه تفيدُ أنَّ بِشارتَهم التي بشّروه بها هي بشارةٌ بالحقِّ الذي لا مِريةَ فيه ولا شكَّ.

فائدةُ مَجيءِ الفعلِ ﴿بَشَّرۡنَٰكَ﴾ ماضيًا:

البِشارةُ بالحقِّ لا تَـقـتـضي التّعجّبَ منها، ولا اسْتِبعادَها

جاء الفعلُ بصيغة الماضي؛ للإيذان بأنّ قولَهم ﴿نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾، هو بشارةٌ بالحقّ، فلا تقتضي البشارةُ بالحقِّ التّعجّبَ من أن يولدَ لكَ ولدٌ ولا استبعادَ وقوعِه، كما أنَّ المبشَّر به من عندِ اللّه أمرٌ لا بدّ من وقوعِه وتحقُّقِه فكيف يُتعجّب منه[1]؟!، كما أفادَ مجيءُ الفعل بصيغة الماضي، أنَّه ليس هناك بشارتان، بل هي بشارة واحدةٌ هي البشارةُ بالغلام العليم.

(1) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي: 5/298.

دَلالةُ الباء في قولِه: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾:

الباء هنا للتّعْديةِ على معنى ملابسةِ البِشارة للحقِّ الذي لا لبسَ فيه، ويحتملُ أن تكونَ للآلةِ بمعنى بطريقةٍ هي حقٌّ[1].

تَنوّعُ معنى الباءِ، توسيعٌ في المعنى

فائِدةُ (ال) في قولِه: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾:

تحتملُ (ال) أن تكونَ جنسيَّةً، والمعنى بشّرناك بحقيقةِ الحقِّ ويدخلُ فيه البشارةُ بالغلامِ العليمِ دخولًا أوَّليًّا، وتحتملُ أن تكونَ للعهدِ العلميِّ، بمعنى بشّرناك بالحقِّ الذي هو معهودٌ عندكَ.

دَلالةُ (ال) بين الجنسيَّةِ والعهديَّةِ، مفيدٌ في فهمِ السّياقِ

دَلالةُ لفْظِ ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾:

تعتمدُ دلالةُ الباء التي تقدَّم ذكرُها على معنى الحقِّ، فإذا كان المرادُ من الحقِّ هو اليقينُ الذي لا لَبسَ فيه والثّابتُ المقطوعُ الذي لا محالةَ في وقوعِه وكونِه كانت الباءُ للتّعدية على معنى ملابسةِ بِشارتِهم لهذا اليقين، وإن كان المرادُ منَ الحقِّ هو الطريقةُ التي هي حقٌّ وهي قولُ الله تعالى وأمرُه الذي لابدَّ من وقوعِه ولا خُلفَ فيه كانت الباء للآلة، وعلى الوجهين يفيدُ الكلامُ أنَّ الولدَ لا بدَّ منه[2].

دَلالةُ الحقِّ بين معنى اليقينِ، والطّريقةِ التي هي أمرُ الله

فائِدةُ الفاء في سياقِ النّهيِ عنِ القُنوطِ:

قولُه تعالى: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ﴾، الفاء هنا تفيدُ التّرتيبَ والسّببيَّةَ، أي ترتّبُ النّهيِ عن أن يكون منَ القانطين على بشارتِهم بالحقِّ، أي بسبب تَبشيرنا لك بالحقِّ لا تكنْ منَ القانطين[3]، والمعنى بشارةُ الملائكة لإبراهيمَ عليه السلام بالغلام العليم والتي هي بِشارةٌ بالحقِّ تقتضي أن لا يكونَ من زمرةِ القانِطين.

البِشارةُ بالحقِّ رحمةٌ منَ الله، وتجليةٌ لمعجزاتِه مع أنبيائِه

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/581، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/213، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/81، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/175.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/213، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/175.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 11/67.

سِرُّ التَّعْبِير بقوله: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾:

بَلاغةُ التَّعْبِيرِ القُرآنيِّ، في اختيارِ اللّفظِ المناسبِ للمعنى

لمّا كان تعجّبُ إبراهيمَ عليه السلام منَ البشارةِ واستبعادُه لها إنّما كان لأنَّه لا يكونُ لَمن هو مثلُ حالِه ولدٌ في العادة كان قولُ الملائكة ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾ مُؤْذنًا أنَّه لم يكن يشكُّ في قدرةِ اللّه على هذا الأمر، ولهذا لم يقولوا (فلا تكن من الممترين) مثلًا[1].

سِرُّ نهيِ إبراهيمَ عنِ القُنوط الذَّميم:

مَن حالُه مثلُ حالِ إبراهيم، فإنَّه يُتوقَّع منه التّعجّبُ والاستبعادُ

لمّا كان اسْتبْعادُ إبراهيمَ لأن يكون له ولدٌ يُفْضي إلى القُنوطِ مِنْ رَحْمَةِ اللّه بَعْدَ أنْ عَلِمَ أنَّ المُبَشِّرينَ بها مُرْسَلونَ إليه مِنَ اللّه قالوا: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾، ذَلِكَ أنَّهُ لَمّا اسْتَبْعَدَ ذلك اسْتِبْعادَ المُتَعَجِّبِ مِنْ حُصولِه كانَ ذلك أثَرًا مِنْ آثارِ رُسوخِ الأُمورِ المُعْتادَةِ في نَفْسِه بِحَيْثُ لَمْ يُقْلِعْهُ مِنْها الخَبَرُ الَّذي يَعْلَمُ صِدْقَهُ فَبَقِيَ في نَفْسِه بَقِيَّةٌ مِنَ التَّرَدُّدِ في حُصولِ ذلك فكانت حالُهُ في الظّاهر مثلَ حال الَّذينَ يَيْأسونَ مِنْ أمْرِ اللّه لقولِه نحو أقوالِهم، وفي التّعبير بأسلوب النّهي إشعارٌ بأنَّ من حالُه مثلُ حالِ سيدنا إبراهيم؛ فإنَّه يُتوقَّع منه التَّعَجُّبُ والاسْتِبْعادُ[2].

سِرُّ التَّعْبِير بقولِه: ﴿مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾:

الأدبُ في الكلامِ مع رُسُلِ اللّه، باختيارِ اللّفظِ المُناسبِ لمقامِهم

لَمّا كانَ إبْراهِيمُ عليه السلام منزّهًا عَن القُنوطِ مِنْ رَحْمَةِ اللّه جاءوا في مَوْعِظَتِه بِطَرِيقَةِ الأدَبِ المُناسِبِ فَنَهَوْهُ عَنْ أنْ يَكونَ مِنْ زُمْرَةِ القانِطِينَ تَحْذِيرًا له مِمّا يُدْخِلُهُ في تلك الزُّمْرَة، ولَمْ يَفْرِضوا أنْ يَكونَ هو قانِطًا لِرفعة مقامِ نبوءتِه عَنْ ذَلِك، ولهذا عبِّرَ بـ﴿مِّنَ﴾ التّبعيضيَّة[3]، فعدلَ عن أن يقال (فلا تكن قانطًا) إلى ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾، كما أنَّ في التّعبيرِ بالنّهي عنِ الكينونة أبلغَ وأكثرَ تأدُّبًا من أن يقال: (فلا تقنطْ).

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/81.

(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/449، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/60.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/59.

نُكتةُ التَّعْبير بلفْظِ ﴿ٱلْقَـٰنِطِينَ﴾:

البِشارةُ بالولدِ بِشارةُ خيرٍ، تفتحُ الأملَ على مِصراعَيه

لمّا كان القنوطُ بمعنى الإياس منَ الخير[1] أفادَ النّهيُ عن أن يكونَ منَ القانطين تأكيدَ أنَّ البشارةَ بالغلام العليم هي بشارةُ خيرٍ لإبراهيمَ عليه السلام، وجاء بصيغة اسم الفاعلِ للإشعارِ بأنَّ أقبحَ القنوطِ وأتمَّه إذا كان وصفًا ثابتًا.

دَلالةُ (ال) في لفْظِ ﴿ٱلْقَـٰنِطِينَ﴾:

النّهيُ عنِ الدّخولِ في زُمرةِ القانِطين، تحذيرٌ من سوءِ العواقِبِ

(ال) هنا لاستغراقِ أفرادِ القانطين، بمعنى لا تكنْ مثلَ أيِّ فردٍ من أفرادِ القانطين.

بَلاغةُ حذْفِ مُتعلِّقِ ﴿ٱلْقَـٰنِطِينَ﴾:

رَحمةُ الله عامّةٌ واسعةٌ، فلا قُنوطَ من آثارِها

لمّا كان التّقدير: فلا تكن منَ القانِطِينَ من ذلكَ، أو فلا تكن منَ القانطين من أن يولَد لك غلامٌ عليمٌ، كان حذفُ المتعلَّق لإفادَةِ العمومِ، بمعنى النَّهيِ عن أن يكونَ لك قنوطٌ من أيِّ أثرٍ من آثارِ رحمةِ اللّه الواسعةِ، أو على معنى النّهيِ عنِ الاتّصاف بصفةِ القنوط، أي لا يكن لك وصفُ القُنوطِ، كما أنَّ في الحذف رعايةً للفاصلةِ وإيجازًا في الكلام بعدما دلَّت عليه قرينةُ المقامِ[2].

دَلالةُ النّهيِ عنِ القنوطِ في السّياقِ:

لم يكن من إبراهيمَ عليه السلام، قُنوطٌ من رحمةِ ربِّه

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ﴾، وفيه أنّه لمّا كان الكلامُ موجَّهًا إلى سيِّدنا إبراهيمَ عليه السلام أفاد أنَّه لا يقصدُ منَ النّهي أنَّ إبراهيمَ عليه السلام قد وقع منه فعلُ القنوط، فهم ينهونَه عنه، فإنَّ القنوط غيرُ متوقَّعٍ منه عليه السلام، فالنَّهْيُ عنِ الشَّيْءِ لا يَدُلُّ على تَلَبُّسِ المَنْهِيِّ عنه به ولا بِمُقارَنَتِه، فيفيدُ أنَّ النّهي غيرُ مستلزمٍ للوقوع؛ لأنَّ الأنبياء قد نُهوا عن أشياءَ قد عُصموا عنها ما لا يحتملُ أن يقعَ منهم ما نُهوا عنه؛ نحوَ قوله: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝٦٠﴾ [آل عمران: 60]، وقولِه:

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (قنط).

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/213، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/175.

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۗ﴾ [الأحزاب: 1]، وذلك ممّا لا يُتوهَّمُ كونُه منهم؛ فلم يكن من إبراهيمَ عليه السلام قنوطٌ من رحمةِ ربّه أصلًا[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

القُنوطُ واليأسُ والخيبةُ:

القُنوطُ هو اليأسُ مِنَ الخيرِ، وهو أشدُّ مُبالغةً منَ اليأسِ

اليأسُ هو انقطاعُ الطَّمع أوِ الرّجاء منَ الشَّيءِ، والقنوطُ أشدُّ مبالغةً منَ اليأس، ولا يكونُ القنوطُ إلّا باليأس منَ الخيرِ، فهو أخصُّ منَ اليأس، وأمّا الخَيبةُ فلا تكون إلا بعدَ الأمل؛ لأنَّها امتناعُ نيلِ ما أُمِّل، فأمّا اليأسُ فقد يكون قبلَ الأمل وقد يكون بعدَه[2].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/151، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/486، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/176.

(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (قنط)، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 246.